

الزعامة
بين علم النفس الاجتماعي وعلم الاجتماع
بقلم
الدكتور عبد العزيز عرّت

اختلفت النظريات في الزعامة من ناحية علم النفس الاجتماعي ، ومع ذلك يمكننا حصر الرئيسية منها في أربع :

أولاً : هناك ما نسميه بالنظرية الجسمية .

ثانياً : هناك نظرية القوة النفسية الواحدة .

ثالثاً : ثم تأتي بعد ذلك نظرية القوى النفسية العامة .

رابعاً : وأخيراً هناك ما نسميه بنظرية القوى النفسية الخاصة بطراز معين من الزعماء . وسنشرح باختصار هذه النظريات ثم نقدها من الناحية الاجتماعية مبينين أوجه النقص فيها . ثم ننتقل بعد ذلك إلى الكلام عن وجهة نظر علم الاجتماع بهذا الصدد ، وهي وجهة نظر مخالفة تمام المخالفة في أساسها ، وغايتها ، ووسائلها للاتجاه النفسي ذلك لأن الزعامة أصلاً مظهر من مظاهر الوجود الجمعي فهي ظاهرة اجتماعية وليست حدثاً من الأحداث الفردية .

النظرية الجسمية ونقدها :

ترجع هذه النظرية الزعامة إلى أهمية العوارض البدنية في الزعيم . وسند أصحابها في ذلك ما يشاهدونه في عالم الحيوان من أن السيطرة للرئيس ذي القوة في بنيتة . فيصورونه مثلاً طويل الجسم ، كبير الحجم ، ثقل الوزن ، ضخمة الجثة مما يجعل مظهره كله المهابة والإبهاء بالقوة والمقدرة على الصراع والنضال^(١) . فالصورة الجسمية هي مصادر النفوذ وغلبة الفرد على من حوله ، وهم يخضعون له لأنهم يهابون قوته العضلية الغاشمة التي يصح أن تنزل عليهم لسبب من الأسباب ، وهي

(١) Gowin : Executive & his control of men, New York 1915, P. 52.

العامل الدافع لهم إلى أن يؤمنوا بما يؤمن به الزعيم من آراء واتجاهات وإلى أن يفعلوا ما يريد وما يهوى تحت تأثير الخوف من بطشه وجبروته . فأصحاب هذه النظرية يحدسون الزعامة في الرجل كما تنحصر الرئاسة بالفطرة في الذكر في جماعات الحيوانات ، ويعتدون المرأة عن هذا الميدان فهي ليست أهلاً للزعامة وليست لها المقدرة على التغلب وبسط النفوذ والكلمة والسيطرة والتحدى والبطش ذلك لما يتوهمونه من أن التركيب الجسمي للمرأة أضعف بكثير من التركيب الجسمي للرجل ، فهي بحكم هذا تابعة له وليس لها أن تنزع لأن طبيعتها البدنية لم تؤهلها للصدارة والقيادة لما فيها من ضعف البنية ونعومة الأعضاء وطراوة الأطراف ، فهي لا يمكنها أن تكون مخلوقاً جارحاً يهجم ويسطو ويعتدى ويأسر غيره بقوته الجسمية . فالزعامة هي زعامة الرجل أصلاً لا زعامة المرأة وذلك بالقياس على ما في عالم الحيوان من أنها للذكر لا للإنثى .

إن هذه النظرية تخلط بين طبائع الأشياء ولا تميز ما للطبيعة الاجتماعية من استقلال تام عن الطبيعة الحيوية الجسمية ، وتفسر الأولى بالثانية عن طريق التشبيه analogy وهي طريقة لا تدرس الأمور على ما هي عليه وإنما كما تبدو بالقياس على شيء آخر يصح أن يخالفه في طبيعته الذاتية ، فهي من الطرق الضعيفة من الناحية العلمية^(١) . فالإنسان ليس بحيوان فقط ، وإنما هو حيوان اجتماعي ، والطبيعة الاجتماعية طبيعية مخالفة للطبيعة الجسمية والنفسية^(٢) . والزعامة مظهر من مظاهر الطبيعة الاجتماعية لأنها تفترض قيام جمهرة من الناس من ناحية وفرد تأصلت فيه الروح الاجتماعية من ناحية أخرى^(٣) . والعلاقة بين الإثنين ليست علاقة خوف وخضوع لسبب المهابة البدنية وإنما لأسباب أخرى اجتماعية كما سنرى ، ذلك لأن طول القامة وضخامة الهيكل الجسمي وثقل الوزن . . . وغير ذلك من عناصر البنية الجسمية ليست شروط أساسية تخلق الزعماء والقادة . فن بين هؤلاء الزعماء من كانوا قصار القامة ضئيلي الحجم في أبدانهم ومع ذلك تزعموا وسادوا في زمانهم وأخضعوا من حولهم في داخلية بلادهم وغيرهم أحياناً في خارجيتها ويمكننا أن نذكر على سبيل المثال لا الحصر في العصر الحديث نابليون

Ellwood — The psychology of Human Society, New York 1931, P. 460. (١)

Durkheim — Les règles de la méthode Sociologique, Paris 1927, P. 5, 6. (٢)

(٣) الدكتور عبد العزيز عزت - رأى في طبيعة المجتمع البشري ، مصر ١٩٤٩ ص ١٠/١١ .

بونابارت في فرنسا ، ودلفوس Doelfuss في النمسا ، وهتلر وجوبلز في ألمانيا . . . إلخ .

لم يعتمد نابليون على فارع طوله في زعامته لأنه كان قريباً من الأرض لم يعرف جسمه الضخامة والبدانة وإنما مال إلى الرقة والنحافة^(١) . وكان له رغم هذه الضآلة الجسمية هبة عليها كل من عرفه سواء كان ذلك في مبدأ حياته أو في أوج عظمته . فعند ما كان قائداً مجهولاً وأرسل لقيادة الجيش في إيطاليا كان عليه العمل مع قواد عسكريين يفوقونه في صلابه عودهم وضخامة أجسامهم ومع ذلك عرف كيف يفرض نفسه عليهم ويترغمهم جميعاً من اللحظة الأولى . فكان من بينهم قائد فرقة يسمى أوجرو Augereau عرف بفظاظته وغلظته وخيالاته لما كان عليه من ضخامة الجثة حتى بدا في محيطه كالدب المفترس ، وكان يستخف بكل من حوله ، ولكن عوارضه الجسمية هذه لم تنفعه في شيء أمام نابليون عند ما قدم إليه مع غيره من قواد جيش إيطاليا فجلس صامتاً يتأمله ويصغى إلى كلامه ويسمع بأذنيه أمر نابليون لهم جميعاً بالانصراف من حضرته ، ويقر عند انصرافه لزميله القائد ماسينا Massena بأن هذا القائد القصير Ce petit bout de général ملأ نفسه بالمهابة من أول نظرة ويختار في تفسير ذلك^(٢) .

وعند ما اشتهر نابليون بعد ذلك وكبرت عظمته زادت هيئته وبلغت درجة القداسة عند من عاش حوله ، فنجد مثلاً قائداً أكثر غلظة ممن تقدم ذكره وهو الجنرال فاندام Vandamme يقول عن نابليون لزميله الماريشال دورانو D'orano في سنة ١٨١٥ وهما يصعدان الدرج في قصر التويلري Tuileries « يا عزيزي إن هذا الإنسان الشيطان (يعني نابليون) له في تأثير بالغ يصعب على فهمه ، أنا الذي لا أخشى الله ولا الشيطان لأنني عند ما اقترب منه اضطرب كما اضطرب الطفل وأشعر أنه لو أمرني أن أقفز إلى النار من خرم إبرة لفعلت »^(٣) . ولقد اعترف لنابليون بهذه المهابة أعداؤه كذلك فكتب القائد الإنجليزي ولزي Wolseley عنه عند ما فر من جزيرة إلبا ما يأتي : « إن نابليون يعود إلى فرنسا بمفرده وله صفه الحارب من الجزيرة الصغيرة ، ومع ذلك أفلح في بضع أسابيع من قلب نظام

Robinson : the Ordeal of civilization, New York 1926, P. 497.

(١)

Gustave le Bon : La psychologie des foules, Paris 1947, P. 88.

(٢)

Ibid., 88.

(٤)

الحكم في فرنسا بدون إراقة دماء . وهذا بفضل قوة شخصيته العجيبة التي لم تكتب لغيره .

كذلك كان الحال عند المستشار النمساوي دلفوس ، فلقد كان قصير القامة نحيف الجسم ، ضئيل الحجم ، هزيل البنية ، ومع ذلك عرف كيف يمد نفوذه على من حوله وتوصل إلى أن يسطر سيطرته على النمسا ويصبح زعيمها الأول الناطق باسمها ، وإلى أن يلعب دوراً هاماً في تاريخها الحديث^(١) . نعم إنه لم يكن قرماً ، ولكن قصره كان واضحاً وتحت المتوسط ، ومع ذلك كانت نسب تركيب جسمه منسجمة ولم تتنافر أعضاؤه وأجزاء بدنه للعيان فكان بهذا قصيراً بحكم البناء ، ولقد كان قصره مدعاة لكثير من الدعايات ، فمن ذلك أن رئيس الجيش النمساوي — وعرف جند هذا الجيش عادة بضخامة الأجسام — اعترضته سلحفاة وهو يستعرض رجاله فتخطاها ، ثم تبين بعد ذلك أن هذه السلحفاة كانت دلفوس نفسه وهو يلبس غطاء الرأس الحربي . . . إلخ^(٢) .

أما هتلر Hitler فلم يكن بدوره ضخم الجثة ولم تبين هيئته على عوارض جسمه لأن مظهر بدنه كان هزلياً بعيداً عن كل مهابة أو وقار لأنه كان يشبه إلى حد كبير الممثل الهزلي شارلي شابلن^(٣) . ثم أن تكوين بدنه لم يجعل منه رجلاً خشناً من منظره وإنما تكوّن بعض أعضائه وجعل منه رجلاً ناعم المنظر لا يوعز بالخوف والإكبار^(٤) . ولهذا تضيع مهابة هتلر كلما اقترب الإنسان منه ، وينعدم تأثيره في غيره إذا فكر هذا الغير في تركيب هيكله وبدنه^(٥) . وإنما استمد هتلر نفوذه وأكد زعامته عن طريق مقدرته الفائقة على الخطابة وعلى التوجيه ، وعن طريق إخلاصه العميق للفكرة النازية وكفايات بني قومه وجنسه الآري^(٦) .

ولم يتجاوز جوبلز في طول قامته مائة وخمسة وستين سنتيمتراً (١,٦٥ سم)^(٧) ،

(١) Junther — Les pilotes de l'Europe, Paris 1936, P. 225.

(٢) Ibid., 221.

(٣) Ibid., p. 7.

(٤) Ibid., 46.

(٥) Ibid., 50.

(٦) Ibid., 49.

(٧) Ibid., 122.

وكان نحيل الجسم صغير الحجم حتى كان يبدو كالفقير ولهذا قيل عنه إنه « قزم يعيش بين عمالقة » *Un nain parmi des géants* ^(١) . وكان بجانب هذا له عاهة ولد بها هي أن أحد ساقيه أطول من الآخر فكان أعرج لا يستقيم في مشيته ، وعلى الرغم من ذلك كان ساعد هتلر الأيمن في تنظيم الحزب النازي ، وفي نشر تعاليم النازية في سائر أنحاء ألمانيا وفي غيرها عن طريق الدعاية والنشر منذ سنة ١٩٢٢ ^(٢) ، وبفضله ومنذ سنة ١٩٢٦ أصبحت مدينة برلين بعد ميونيخ قلعة للحزب النازي بما كان يصدره فيها جوبلز من النشرات وخاصة صحيفة أبغريف *Augriff* ^(٣) .

ونحن لا نريد أن نستطرد أكثر من ذلك في إعطاء الأمثلة التي توضح في جلاء وبيان أن بنية الجسم وخاصة طولها ، وحجمها ، ووزنها لا صلة لها بالزعامة ولا يمكن أن تكون أساساً صالحاً لقيام الزعماء وفرض نفوذهم على غيرهم من متبعينهم ، فهي أساس واه ضعيف لا سند له من التاريخ أو من الواقع .

ثم أن هذه النظرية تخطيء كذلك عند ما تحصر الزعامة في الذكور دون الإناث كأن الزعامة كانت وفقاً فقط عليهم وأن الإناث سواء في عالم الحيوان أم في عالم الإنسان لم يخلقن للسيطرة والغلبة ، وهذا رأى ليس بصحيح فقد أثبت الأستاذ يركس *Yerkes* أن الزعامة يصح أن تكون من نصيب الإناث عند بعض الحيوانات وخاصة القردة ، فأثبت هذا النوع لها سيطرتها على الذكور في موسم الاتصال الجنسي عند ما تهيئ الغرائز الجنسية وتشتد الرغبة و التناسل وتزداد الحمية في أجسام الذكور ، فتجدهم ينجذبون إلى الإناث ويخضعون كثيراً لهن ويحققون رغباتهن ، ويتمشون حسب ميولهن ^(٤) .

ويبدو خطأ هذه النظرية واضحاً أكثر في عالم الإنسان ، فالمرأة لها أهميتها في المجتمع البشري وخاصة في المجتمعات الراقية قديماً وحديثاً ، فقد بدأ نرى جان دارك تترجم أبناء مقاطعتها في فرنسا لطرد الغزاة الإنجليز من أرض وطنها ، وتلهم مواطنيها الحماس والقوة والشجاعة حتى اعتبرت قديسة نزلت لهم من السماء لتدفعهم

Ibid., 111. (١)

Idid., 112 (٢)

Ibid., 113. (٣)

Yerkes : Journal of comparative psychology, 1940, 30 : 147-186. (٤)

إلى التغلب والنصر : فكانت تتقدم جموعهم على صهوة جواد وتحركهم وتقودهم من موقعة إلى أخرى حتى أخرج آخر جندي إنجليزي من أرض فرنسا في ذلك الحين . ولقد ضربت بشجاعتها أبلغ المثل للتضحية والفداء وحب الوطن لأنها كانت رابطة الجأش عند ما حاكمها الإنجليز وحرقوها في بلدة روان سنة ١٤٣١ بعد أن باعها لهم الخائن دوق برجاندی^(١) ، ولكن هذا الانتقام الرخيص كان من العوامل الفعالة في تقوية الروح المعنوية وحب الانتقام عند الفرنسيين فلم تغمض لهم عين حتى نجحت قضيتهم الوطنية بطرد عدوهم من بلادهم وهذا بفضل الروح العالية التي ثبتتها فيهم زعيمتهم الشابة وبهذا كان المنقذ لفرنسا من نير الاستعمار امرأة وأصبحت تمثل فرنسا بين الأمم في صورة امرأة^(٢) .

وفي العصر الحديث تزعمت مدام كورى Curie في ميدان إنساني أعم وأشمل هو ميدان العلم فتوصلت إلى اكتشاف الراديوم الذي كان له أهميته العلاجية في عالم الطب فقد خفف كثيراً من ويلات بعض الأمراض الخطيرة والمزمنة . فكانت زعيمة خالدة في هذا الميدان العقلي وخلقت لها مدرسة في فرنسا وفي خارج فرنسا تسير في هذا التيار الفكري الإنساني الذي خلقت بتفانيها في محبة الكشف عن الحقيقة ورغبتها في إنقاذ الإنسانية من أمراضها وعلاها المؤلمة^(٣) .

ومن هذا يتضح أن هذه النظرية الجسمية تخطيء في تصور الأنثى كأنها أضعف من الذكر من الناحية الجسمية والعقلية ، فجاء دارك أمكنها بقوة روحها وخاصة بقوة جسمها تحمل ما تطلبه الشجاعة والتضحية من آلام واضطهاد وتعذيب . ومام كورى أمكنها بقوة جسمها وخاصة عقلها من احتال التعب ومشاق السهر وإجراء التجارب في المعامل وما كان لمادة الراديوم نفسها من أثر في أعضاء جسمها وتحتمل هذا بصدر رحب في سبيل الفكرة التي تؤمن بها وهي الوصول إلى الحقيقة وما لها من فائدة لبني البشر بأجمعهم . كل هذا يدل على أن للمرأة مقدرة النضال الجسمي والعقلي في الحياة ولا يتقصها عن الرجل شيء إطلاقاً .

ولقد حاول بعض العلماء بحس المرأة حقها من الناحية العقلية والجسمية ومجادى بوجه خاص في اتجاه هذه النظرية الجسمية التي تبين المقدرة الشخصية

(١) Robinson, op. cit. P. 254.

(٢) Michelet ; Histoire de France, dans, Extraits des Historiens français du XIXe

siècle, par Jullian 7^{ed}. P. 349

Rostand, et Boutaric — Les sciences, Paris 1933, P. 349, 350.

(٣)

والزعامة على عوارض البدن وأهمهم الأستاذ بيكوف Bischoff الأستاذ الشهير في جامعة سان برنبرج فلقد نشر في سنة ١٨٧٢ بحثاً ضد مقدرة الأنثى الجسمية والعقلية توهم فيه أن هذا الضعف يرجع إلى عامل جسمي محض هو المخ ، فهو يعتبر أن مخ المرأة في وزنه أقل من مخ الرجل . وقد بلغ به الحماس لإثبات صحة نظريته أن أوصى بوزن مخه عند مماته متوهماً أنه سيكون ثقيلاً جداً لأنه مخ عالم جهيد ، ولكن للأسف الشديد عند ما وزن مخه انضح أنه أقل من متوسط وزن مخ النساء بخمسة جرامات^(١) . ومن هذا يظهر خطأ التعصب للذكر فقط سواء في عالم الحيوان أو في عالم الإنسان فالأنثى خا مقدرتها وكفاياتها البدنية والعقلية التي لا تقل في شيء عن مقدرة الذكر ، ومن هنا لا يمكن أن تنحصر الزعامة والسيطرة فقط في الرجل وإنما هي تمتد إلى عالم النساء سواء بسواء .

نظرية القوة النفسية الواحدة ونقدها :

هي نظرية الفيلسوف الفرنسي جبريل تارد^(٢) . وهي تبين الزعامة على قوة نفسية هي قوة التقليد فيما بين الزعيم وأتباعه ، وتعتبرها الأساس الذي تتركز عليه سائر ألوان الحياة في المجتمع البشري ومنها الزعامة . ويتحكم في هذه الحياة بعض أفراد ناهين هم الزعماء . وتفرد الزعماء ينحصر في خلقهم لبعض تجليدات لم تكن موجودة من قبل وفهمهم لبعض مظاهر الحياة العامة بشكل خاص ثم تركيز مجهودهم وهمهم في فرضها فرضاً عن طريق التقليد والمحاكاة على غيرهم في المجتمع فيأخذ الناس بها آلياً^(٣) . فالزعامة عند تارد وظيفة تخبيرية

(١) Marion — Psychologie de la femme, Paris 1907, P. 55, 56.

(٢) تشبه هذه النظرية في كثير من نواحيها نظرية العلامة فرويد Freud في الزعامة التي يسطرها في كتابه Group psychology & the analysis of the ego, London 1922 . وهي نظرية مهمة أثرت في تفكير كثير من علماء النفس الاجتماعي فأخذ بها تقريباً من القدامى لوبوان Le Bon في كتابه La psychologie des foules, Paris 1895 وفي كتابه الذي ظهر لأول مرة في سنة ١٨٩٥ وسكندر جال McDougall في كتابه The group mind, New York 1950 ومن المحدثين يوليغ P.C. Young في بحثه The nature of hypnosis الذي نشره في J. abu. & The science of psychology في كتابه Wheeler أيضاً الأستاذ هويلر في كتابه Soc. psychol 1928, 22, 372-382 New York 1929.

Tarde : Transformation du droit, édition Alcan, P. 170.

(٣)

تتلخص في مقدرة الزعيم على فرض نفسه على الغير فيتبعونه تلقائياً عن طريق التقليد الذي يخلق منهم تابعين فقط يسرون وراءه كما يسير قطيع العيس وراء حاديه . فالزعيم يأتي في المرتبة الأولى والتابعين في المرتبة الثانية والعلاقة بينهما علاقة سيد لمسود ، لأنها علاقة تصور الزعيم من المهابة والعظمة ما يكفل سيطرته على الجموع البشرية التي يقودها ، وهو كالشمس التي لا يمكن أن يفتح الإنسان عينيه أمامها ، وهو كالساحر الذي يؤثر تأثيراً مغنطيسياً على متبعيه فيشل حركاتهم ويوقف نشاطهم ليوجههم الوجهة التي يرضاها . فالناس أمامه نيام ولكنهم ليسوا بأموات *endormis mais non morts* ^(١) . هم طوع وإرادته وتحت إشارته . ولهذا ينتهي تارد إلى تعريف الزعامة بأنها تقليد ساحر وفائن جذاب *C'est une imitation par fascination* ، وهي حسب هذا التعريف تصبح نوعاً من المرض النفسي ، فهي عدوى نفسية ^(٢) *C'est une contagion* . تهدف إلى خلق الخضوع والأيمان في العقل الباطن عن طريق التحذير النفسي والقضاء على إرادات المتبعين وجعلهم في نوع من الإغواء العملي لا يقدرون فيه على نقاش الزعيم أو مجادلته . فالزعيم يعلو على حساب مريديه وهم أمامه كالأحجار والأخشاب المسندة التي تناسك من غير وعي للخضوع وتقاديس مهابته وعظمته ولرفعه من حيث لا تدرى إلى السماكين .

ويحصر تارد *Tarde* الزعامة في الرجال فقط ، فهو عند ما يضرب لها الأمثال يضربها مثلاً برمسيس ملك مصر ، والإسكندر الأكبر ، والنبي محمد عليه السلام . وبنايلون . . . إلخ ويصفهم بأنهم عباقرة ويصورهم كأشخاص خرافيين لما كان لهم من مقدرة خارقة للعادة في امتلاك ناصية متبعيهم وإلثارهم متى شاؤوا لأن لهم هبة سحرية تؤثر فيمن حولهم فيقلدونهم تقليداً أعمى في كل شيء بكل جوارحهم ويحتدون في أن يكونوا صورياً لهم يؤثرون بدورهم في غيرهم ليصبحوا بالشكل نفسه . . . وهكذا ، وقبل ذلك كالحجر الذي يلقى في الماء فتنتفج الدوائر واحدة من بعد أخرى ويكبر محيطها في كل مرة ^(٣) . ويقسم تارد بهذا المجتمع البشري إلى طبقات بعضها فوق بعض ويضع الأسفل منها للأعلى .

Tarde : *Lois de l'imitation*, édition Alcan, P. 84. (١)

Ibid., P. 26. (٢)

Ibid., P. 84. et suiv. (٣)

لأن من طبيعة التقليد عنده أنه يقلد الضعيف القوى ، ولهذا كان فهمه للزعامة فهما أرسقراطياً لا يتفق في شيء مع الروح الديمقراطية ، ويحصر الزعامة في الطبقات الراقية لأنه يعتبر أن أهل هذه الطبقات ينفردون دون غيرهم بأهلية الابتكار ومقدرة التجديد ، أما سائر أفراد الشعب فهم في نظره من الدهماء مقلدون ، نعم إنه لا ينكر أن من بين أبناء الشعب من يمكنه الابتكار ولكنه يذكر أن مثل هذا الابتكار مصيره الاحتقار والازدراء وعدم التقدير والانتشار لأن التقليد قلما يذهب من أسفل إلى أعلى . ويعتبر أن تقدم الأمم وارتقائها يرتكز على انحصار الزعامات في كل باب وخاصة في العلوم والأديان والفنون الحربية في أفراد من الطبقات المترفة الأرستقراطية (١) .

يخطئ تارد Tarde عند ما يبين الزعامة على التقليد لأنها ليست ظاهرة فردية ، وإنما هي ظاهرة اجتماعية . وبهذا الاعتبار تخضع للصفة العامة للظواهر الاجتماعية من أنها ملزمة (٢) ، فالناس يشعرون عادة بنوع من الجبر والتحتيم في أن يخضعوا أحياناً لزعيم معين . وهذا الإلزام لا يأتي من الزعيم نفسه ، فهو ليس بقوة سحرية فردية ، تكمل على الناس ، وتفرض عليهم فرضاً وتجعلهم في حالة تخدير وانقياد ، وإنما مصدر الإلزام هو الجماعة نفسها (٣) ، فهو ينبعث من الروح الكلية ومصدره العقل الجمعي الذي يجعل الزعيم ينساق في تياره ، ويعبر عنه ، ويكون لسانه الناطق عنه بأفصح بيان (٤) . فليس إذن هناك تثنية أو ازدواج في فهم الزعامة من وجهة نظر علم الاجتماع وليس هناك جمع من جهة وزعيم من جهة أخرى وإنما الجمع والزعيم شيء واحد . الجمع له إرادة كلية ، والزعيم هو المرآة الصادقة لهذه الإرادة . وهنا ندرك أن ليس هناك تحكم وتجبر من الزعيم قبل الجماعة ، والجماعة ليست كالسائمة أو الانعام يحركها كما يشاء ، وإنما الزعيم هو روحها المجسمة ، فهو منها وهي منه . فهناك تداخل بين الاثنين وهناك انسجام وتضامن لا تنافر وتشاحن وليست هناك أعلى وأسفل فيما بينهما ، فهما من درجة واحدة (٥) . والزعيم لا يشعر بتكليف بثقل على كاهله في أن يدافع عنها .

(١) Ibid., P. 235

(٢) الدكتور علي عبد الواحد وافي - ثقافة والجمعي - مصر ١٩٤٦ ، ص ٣ .

(٣) Durkheim : Règles, P. 7, 15.

(٤) Règles, préface 2e. édition, P. 20, 21.

(٥) Durkheim — Suicidé, Paris 1930, P. 115 — 117.

ويقودها من حسن إلى أحسن ، فالإلزام الذى يشعر به نحو جماعته إلزام محبوب Désirable ، لأنه يضعه فى مقام الرأس المدبرة من الجسد ، فهو فى مكان مرموق لا يمثل نفسه فيه ، وإنما يمثل الإرادة الكلية للناس من حوله ، فهناك إذن جاذبية مقبولة فيما بينه وبين قومه^(١). تجعله يعمل من نفسه وبرضائه وفى سرور على التفانى من أجلها ومن أجل رفع اسمها عالياً بين الهيئات والمجتمعات. ومثل هذا الإلزام الجمعى كممثل الضغط الجوى، فهو موجود ، ولكنه لا يثقل على كاهل الإنسان ولا يشعر به^(٢). وكذلك الزعيم لا يحس بتكليف برهقه قبل الجماعة ، وإنما يشعر على عكس ذلك بنوع من التضامن Solidarité فيما بينه وبينها^(٣).

ومن هذا نرى أن العلاقة فيما بين الزعيم وأتباعه لا تأتى من أعلى إلى أسفل ويكون الإلتباع يقلدونه ويسيروا وراءه ، وإنما الزعامة تنبج من أسفل إلى أعلى بمعنى أن هناك روح جمعية تنقسم فى فرد - هذا إذا استعملنا لغة تارد - ولكن فى الواقع ليس هناك أسفل ولا أعلى فى الفهم الاجتماعى ، لأنه فهم ديمقراطى ويبتعد كل البعد عن الإستقراطية ووضع الفوارق بين الزعماء والقادة من جهة وبين الشعب الجمهور من جهة أخرى ، وإنما علم الاجتماع يضع الإثنين فى مستوى واحد ويربطهما لا برابط التقليد الذى يخفص ويعلى ، وإنما برابط غير فردى هو رباط اجتماعى يوجد بين الإثنين ويجعلهما يكتلون بعضهما بعضاً، هو رباط الإلزام المحبوب^(٤) ، بحيث تصبح الزعامة « قالبا » اجتماعياً يلبسه الزعيم فيتلون بلونه ويصطبغ بصبغته ، هذا القالب هو الإرادة العامة التى تتجسم فى الزعيم فينطق باسمها ويعبر عن اتجاهاتها ويفصح عن مراميها ، فليس هناك وجود مزدوج فيما بين الزعيم وأتباعه ، وإنما هناك وجود موحد ، لأن هناك عقل جمعى واحد يربط فيما بينهما^(٥) ، هذا العقل هو ذكريات الماضى ومجهودات الحاضر وآمال المستقبل التى تخلق التضامن والتفاسك القوى فيما بين الإثنين فتجعلهما شيئاً واحداً^(٦).

(١) Règles, Préface 2^{ed}. P, 20, 21 .

(٢) الدكتور عبد العزيز عزت - آراء فى طبيعة التواجر الاجتماعية مصر ١٩٤٩ ص ١٤ .

(٣) Durkheim-De La Division du travail social, Paris 1926

(٤) Préface 2^e édition, P, 20, 12 .

(٥) الدكتور عبد العزيز عزت - العقل الجمعى مصر ١٩٥٢ ص ١٨ وما بعدها .

(٦) Règles, préf. 2^e édit. P, 23 .

ومن هنا ليس هناك مجال لتحدث كما يتحدث تارد Tarde عما يسميه بتخدير الزعيم لأتباعه لأنهم الذين قبلوا أن يتزعمهم فرد معين ، فهو عليهم بإراداتهم وهم الذين به طرونه إلى أن ينساق في اتجاهاتهم وبرايمهم ، ولهذا ليس من سبيل ليكونوا كالأنعام مخضعون له خضوعاً مطلقاً فيكونوا كما يريد تارد مخدرين وآلين يفعلون ما يؤمرون . وإنما الجماعة هي التي توليهم عليها إن صلحوا وأصلحوا وهي التي تناقشهم وتوجههم الوجهة التي ترضاها . وهي التي تعزلم إن فسدوا وخرجوا عن الحدود التي رسمتها . ولم وعن الأهداف التي عينتها وتدعوهم لتحقيقها . فتوجيهات^(١) الزعماء وقيادتهم ليست فردية من تصوراتهم الخاصة ولا يمكنها ولا تملأها أهواؤهم الذاتية وإنما تشتق من الروح الجمعية والمثل الكلية للناس في جماعة معينة . ومصادق هذا أن الزعيم إذا لم يحترم هذه الروح الجمعية ثار الناس عليه وخطموا خططه لأنه لم يعد الترخان الصادق عن مشاعرهم . فعلم الاجتماع لا يرضى للناس أن يكونوا تابعين كالسائمة والدواب تسير وراء الزعيم بدون فهم أو نقاش ، وإنما هو يقول بالحرية في مختلف أشكالها سواء للزعيم أو لتابعيه وليس لأحدهم أن يستبد بالآخر لأن كلا منهما متكامل مع الآخر وكلاهما يخضعان لروح واحدة هي الروح الاجتماعية التي خلقها الماضي ويؤكد لها الحاضر وتحركها إلى الأمام آمال المستقبل .

وإذا كان الزعيم بالفهم النفسي عند تادر يبيح لنفسه أن يتجبر ويستبد ، وأن يتأله ويعتبر نفسه من مرتبة أرقى من متبعيه . وأنه من جنس ذهبي وأنهم من جنس برنزي — لو استعزنا لغة أفلاطون — فإن علم الاجتماع لا يقر هذا الاتجاه لأنه يرى أن الزعيم يدين للمجتمع^(٢) . في نشأته . وفي ثقافته ، وفي مركزه الأدبي . فالتربية في الأسرة لها أثرها عليه في صباه لأنها تلقته العادات والعرف والتقاليد ، فتربطه بأداب مجتمعة وبسنن التعامل فيه ، وتخلق عنده الوجدان الأخلاقي ، والروح الاجتماعية بالتضامن مع من نحوله فيها لأنه منهم وهم منه . ثم يأتي بعد ذلك أثر المجتمع عن طريق التعليم في المدارس بمختلف مراحلها فترفع من مستواه العقلي^(٣) . وترقى من تفكيره ، وتجعله يعدل على تحقيق المعنى الإنساني الجمعي

(١) Règles, 126-129.

(٢) الدكتور عبد العزيز عزت — رأى في طبيعة المجتمع البشري ، مصر ١٩٤٩ ص ١٨ .

(٣) Règles, P. 15.

في شخصه ، فيشعر الزعيم بأنه ارتقى إلى مستوى حفارة يكفل له الفهم الواضح ، والتعبير السليم ، والتخلق الفاضل . . . وغير ذلك من المزايا التي لا يبالغها إلا بفضل المجتمع ممثلاً في هيئاته التعليمية والثقافية . كذلك يشعر الزعيم من الناحية الاجتماعية بفضل المجتمع عليه بما أولاه من مهنة معينة يشغلها فيه ، فيؤدي مهمة لها فائدتها بين الناس ولها قيمتها من الصدارة فيما بينهم ، لأنها تمكنه من التعبير عن أهدافهم ووراميتهم ، وهذا مركز أدبي عظيم الزعيم مدين فيه إلى الناس لا إلى نفسه ، فيشعر أن قيمته الذاتية تأتيه من الخارج وتخلع عليه خلعاً^(١) . فكل قيمته إذن تأتيه من أنه كائن اجتماعي نافع يؤدي خدمات في هيئة معينة أو في هيئات متعددة والعمل النافع هو قيمة الإنسان في المجتمع ، والعمل ظاهرة اجتماعية تتطلب الإحاطة بأصول فنية حددها المجتمع جيل بعد جيل ، والزعامة هي أرقى أنواع الأعمال في مجتمع القرن العشرين ، لأنها عمل يمس المصير الحيوي للهيئات الاجتماعية والمجتمعات البشرية . ومن هنا يشعر الزعيم أنه ليس ملكاً لنفسه وإنما هو ملك لغيره وأن هذا الغر له الفقه ل عليه في رفعه إلى مقامه السامي لأنه رأى فيه المعبر الصادق عن روح الهيئات والجماعات^(٢) .

أما كون تارد محصر الزعامة في الرجال وتقصيها عن النساء فهذا فهم خاطيء لما للمرأة من الكفايات الجسمية والعقلية ، فهي ليست أقل من الرجال من هاتين الناحيتين . فمن الناحية الجسمية نجد المرأة في الجماعات المتأخرة البدائية تقوم بأغلب الأعمال الشاقة المتعبة في محيط الأسرة من زراعة إلى طحن للغلال إلى بناء للمساكن ، إلى حمل للمتع في حالة الارتحال . . . إلخ . وأن حياة الانتاج عند الإنسان في مبدأ حضارته قامت على أكتاف المرأة كما تقوم حضارتنا الراهنة في الشعوب الراقية على الآلة التي هي محور النشاط الاجتماعي كله^(٣) . أما من الناحية العقلية فقد برزت المرأة في كثير من أنواع التخصص الفكري في العصر الحديث ، فهناك مثلاً جورج ساند G. Sand في القصص ، ومدام ديبورده فالمور Desbordes Valmore في الشعر ، ولوراباسي Laura Bassi في الفلسفة ، ومدام كوالسكا في الهندسة Kowalcwska ، وصوفي جرمان Sophie Germain .

(١) Règles, P. 6.

(٢) الدكتور عزت رأي ص ١٠ - ١١

(٣) Bouglé : de la Sociologie à action Sociale, Paris 1931, P. 104, 105.

في الرياضيات^(١) ، ووليام كوري Curie ، في الطبيعة ، ووليام برونشفيك في التربية Brunschvig . . . إلخ . لقد يحسن نادر حق المرأة في الزعامة لأنه من حنابلة الكاثوليك^(٢) الذي يتوهمون أن المرأة بوجه عام هي سبب خطيئة آدم فحق عليها التأخر وعليها أن تكفر عن سيئتها أمام أبناء آدم ، ولكن من الناحية الاجتماعية المرأة تكون نصف المجتمع فهي عنصر مهم من عناصر تكوينه المرفولوجي أي الخاصة ببنيته ، فإذا أهمل هذا العنصر ولم تفتح أبواب الزعامة أمامها خسر المجتمع كفايات ممتازة قد تفيده كثيراً في نواحي نشاطه المختلفة ، ولهذا ينزع علم الاجتماع في هذه النقطة نزعة ديمقراطية ويقول بالمساواة بين الرجل والمرأة^(٣) ويقر زعامة المرأة لما لها من الأهمية الاثنوجرافية والتاريخية فمن الناحية الإثنوجرافية نجد أن الفطرة الاجتماعية في الشعوب المتأخرة البدائية تقول بزعامة المرأة فهي الرئيسة الشرعية في النظام الأموي Matriarcat الذي نجده في بلاد النبت في أواسط آسيا وكذلك في شمال شرق بلاد الهند . . . إلخ^(٤) . وللمرأة من الناحية التاريخية زعامات مشهورة في أوروبا مثلاً نجد جان دارك ، وفي بلاد الشرق الإسلامي نجد عائشة أم المؤمنين وبنو الأزور ، وغزاة . . . إلخ^(٥) .

نظرية القوى النفسية العامة ونقدها :

اختلف علماء النفس الاجتماعي في تحديد عدد هذه القوى ، ولقد حاول الأستاذ بريت Britt أن يستعرض أهم القوائم التي حددتها فيذكر مثلاً أن العلامة البورت Allport يحصرها في تسع عشر بينما يجمعها برنارد Bernard في إحدى وثلاثين قوة . ولقد حاول الأستاذ بيرد Bird أن يخصص أكبر عدد منها عند كثير من الباحثين بلغ عددهم نحو العشرين فوجدوا تسعاً وسبعين قوة نفسية^(٦) ،

(١) Marion — La psychologie de la femme, Paris 1907, P. 206, 211.

(٢) Tarde par ses fils, avec préface par Bergson, P.8 Collection des grands philosophes

(٣) Bonglé, op. ci. P. 110

(٤) Luvie : Traité de Sociologie primitive, Paris 1935, P. 56 e Suiv.

(٥) الدكتور علي إبراهيم حسن — نساء هن في التاريخ الإسلامي نصيب ، مصر ١٩٥٠ ص ٥٩

(٦) Britt — Social psychology of modern life, New York 1941, P. 277, 278.

أهمها الذكاء فلقد ذكره نحو عشرة من علماء النفس في أبحاثهم عن الزعامة ثم تأتى بعد ذلك قدرة الابتكار فقد أشار إليها نحو ستة منهم ، ثم إلى بعد ذلك فى الأهمية قوة الإفصاح فى التعبير ، والسجية المرحية فقد قال بها نحو خمسة من الباحثين ثم يعقب ذلك قوة التحمس ، ونقاء السريرة ، والمشاركة الوجدانية والثقة بالنفس ، فقد ذكر كلا من هذه القوى الأربع أربعة من الباحثين . وفى واقع الأمر إن من بين التسع والسبعين قوة ، واحدا وخمسين ذكرت مرة واحدة فقط ، ونذكر من هذه الأخيرة : قوة معرفة الطبيعة البشرية ، وقوة التفرد الذاتى ، وقوة النضج العقلى ، وقوة الذاكرة . . . إلخ .

ولعل أهم الباحثين فى الزعامة من هذه الناحية النفسية هو الأستاذ تيد^(١) Tead . فهو بعد أن يقسم الزعامة إلى أنواع ثلاثة يشر إلى القوى النفسية اللازمة لها وخاصة للنوع الأول منها هو :

أولاً : الزعامة عن طريق المجهود الشخصى والكفاية الذاتية ، ويعتبرها أهم الزعامات ، لأنها تأتى من مقدرة شخصية وكفاية ذاتية .

ثانياً : هناك ما يسميه تيد بالزعامة عن طريق الانتخاب ، لأنها تقوم على الاختيار الذى يأتى عن اجتماع كلمة المجموع بوضع الزعيم فى مكان الصدارة ، فهى زعامة ديمقراطية تبنى على الارتياح والرضا الجمعى ، ووضع الثقة الكلية فى شخص معين ليمثل الإدارة العامة لجميع معين .

ثالثاً : ثم تأتى بعد ذلك الزعامة عن طريق التعيين كما عين مثلاً الرئيس ترومان فى الولايات المتحدة الأمريكية ، فهذه الزعامة يمكن تسميتها بالزعامة الرسمية لأن السلطة الحاكمة هى التى تقوم بها لما لها من نفوذ وكلمة مسموعة فى الدولة .

إن فى مثل هذه الزعامات وخاصة فى الزعامة من النوع الأول لا بد من أن تتحقق من الزعيم عشر قوى نفسية هى الدعامة الأساسية فى نظر الأستاذ تيد التى تجعل منه زعيماً بالمعنى الصحيح ، وهذه القوى لا يتغلب بعضها على بعض وإنما هى كلها تلعب دورها مجتمعة ، وكل واحدة منها متصلة تمام الاتصال بالأخريات ، وكل قوة لها أهميتها فى ذاتها ، غير أن هذه الأهمية الذاتية تتلرج بالشكل الآتى : يضع تيد Tead على رأس القائمة :

أولاً : قوة الجهاز العصبي ، فالزعيم عنده في حاجة إلى أعصاب قوية من حديد لتحتمل صدمات الحياة وتقادماها في هدوء وعدم اضطراب .

ثانياً : قوة التوجيه ومعرفة الهدف الذي يرى إليه الزعيم ، والغرض الذي يتحرك نحوه ، والمرى الذي يدفعه باتباعه إليه ، فهو لا يسير في الحياة اعتباطاً وإنما يحدد بدقة كل خطوة يخطوها إلى الأمام ، فالإيهام والغموض من أعداء الزعامة .

ثالثاً : قوة التحمس - فالزعيم كمن يخطو بنفسه وبغيره إلى هدف معين لا يكفيه أن يقتنع به منطقياً وإنما لا بد له بجانب عنصر العقل والفهم من عنصر الشعور الذي يثير حول كل فكرة هالة من الاخلاص لها والتفاني في سبيلها ، وبهذا يندفع الزعيم وأتباعه لتحقيقها مهما كلفهم ذلك من تضحيات بالنفس والنفيس .

رابعاً : هناك قوة الصداقة والمحبة ، فالزعيم يجب أن يكون له قوة يسيطر بها على أتباعه ، وهذه السيطرة لا تأتي عن طريق العنف وإنما عن طريق اللين بحيث لا يكون قفلاً غليظ القلب فينفض الناس من حوله وإنما يجب أن تقوم زعامته على حسن المزاولة وهي قوة قائد الرأي على تملك زمام تابعيه بالمعروف واعتبار أنصاره أصدقاء له يودهم ليبادلونه بدورهم المحبة والإخاء .

خامساً : وهناك ما يسميه الأستاذ تيد بعد ذلك بقوة الاستقامة كمن يبلو الزعيم في أعين أتباعه كأنه المثل الأعلى الذي يحتذى به ، وأنه رمز للكمال عندهم ، وهذه هي الناحية الأخلاقية في الزعيم ، فهو يجب ألا ينحط ويكون مبتذلاً في أقواله وأفعاله وإنما يجب أن يكون موضعاً لتقدير أتباعه باتباعه سنن الفضائل والقيام بفروض الواجبات نحو نفسه ونحو غيره من حوله .

سادساً : ما يمكن تسميته بالقوة الفنية وهي قوة تمكن الزعيم من أن يكون على مهارة فائقة في موضوع زعامته سواء كان هذا الموضوع سياسياً أم اقتصادياً أم علمياً أم جبرياً . . . إلخ ، فالكفاية المهنية والإلمام التام بأصول المهنة والتبرير فيها شرط أساسي من أسس الزعامة ، وبهذا تكون زعامته لا تقوم على الجهل وإنما على العلم والبصيرة العامة .

سابعاً : قوة الحزم بالألا يكون الزعيم من أرباب التردد والهرجة ، وإنما يعرف كيف يقطع برأى حاسم واضح في مختلف الشئون وأن يثابر في هذا الرأي حتى يتحقق واقعياً دون خوف ولا وجل إذا ما اقتنع بصحته وفائدته . لأن التردد

وعند الحزم يصوره بصورة الضعف عند متبعيه فتصغر قيمته عندهم ، ويوهى زعامته فتذهب كلمته في مهب الريح عندهم .

ثامناً : قوة الذكاء وهى قوة نفسية مهمة لا بد منها للزعيم كى يحل مشكلات الحياة التى تعرض له فى موضوع زعامته ، وهذه المشكلات تتطلب عادة التفكير والتدبر والاستقرار والاستنباط وغير ذلك من العمليات الفكرية التى تخلق مخزناً سريعاً وموفقاً من المآزق الحرجة التى يقع فيها أحياناً ويريد التخلص منها وقد يكون فيها أيضاً خلاص متبعيه . كذلك . فهى قوة منقذة تكتب التوفيق والنجاح للزعيم وأنصاره فى حل معضلات شؤونهم العامة والخاصة .

تاسعاً : قوة الإفصاح وتوضيح ما يبدو غامضاً فى عقول متبعيه ، فالزعيم بهذا هو معلمهم الأول يرسم لهم الخطط للسير عليها ويرشدهم إلى سراء السبيل ، ولهذا هو الذى يضع الأسس التى تقوم عابها الزعامة وينشئ التعليمات التى يجب أن يتلقاها مريدوه ، ويحدد السبل المختلفة المؤدية إلى تحقيق هذه الأسس وهذه التعليمات . وهذه مهمة تعليمية شاقة تتطلب قوة ذاتية ، ومقدرة شخصية فى التوجيه والإرشاد .

عاشراً : وأخيراً يحدثنا تيد Tied^(١) عن قوة الإيمان ، وهى قوة لا بد منها للزعيم كى تصدر أقواله وأفعاله عن عقيدة راسخة وأمل أكيد يملأ نفسه لتحقيق أفضل الغايات وأكبرها ، فهو عنصر فعال ينزع من النفس تشاؤمها ويأسها ويهبها الثقة فى مستقبل مشرق مزدهر ، وهذه القوة لا تنحصر فى الزعيم نفسه وإنما تفيض وتتعداه إلى غيره من أتباعه فينظرون إلى المستقبل بعين الثقة ويسرون وراءه وكلهم اليقين بنجاح مبادئه ويطمئنون كل الاطمئنان إلى خططه والأخذ بها فى هدوء واقتناع .

إن أصحاب هذه النظرية يتحدثون عن القوى النفسية حديثاً أدبياً عاماً بعيداً كل البعد عن الروح العلمية الدقيقة ، ولا نجد عندهم الدقة الإصطلاحية التى تعارف عليها علماء النفس^(٢) ، وخاصة فيما يتعلق بكلامهم مثلاً عن القوة العصبية وعن الذكاء وعن الإيمان . . . إلخ . كذلك هم يخلطون فى كلامهم بين

(١) Ibid., P.P. 25ff.

(٢) انظر ما كتبه الدكتور يوسف مراد فى مجلة علم النفس عدد (١) يونيو ١٩٤٥ مجلة (١) ص ١٠٠ - ١٠٦ . وأيضاً عدد ٢ و ٣ من المجلة نفسه .

العناصر النفسية والعناصر الأخلاقية ، فيتداخل كلامهم في البابين ، مع أن التمييز واجب من ناحية الدقة العلمية . فلكل موضوع مجال بمحصر من ناحيته وهو ما يعبر عنه بالفرنسية *Le champs du discours* فالزعامة من الناحية النفسية شيء مخالف لدراستها من الناحية الجسمية أو الأخلاقية أو الاجتماعية . . . إلخ . والموضوع الواحد يمكن دراسته من عدة نواح ويجب على الباحث الفصل والتمييز بين هذه النواحي وإبراز الناحية التي سيتخذها أساساً لبحثه ودراسته فلا يخلط بين هذه النواحي لاختلاف طبيعتها^(١) ، وهذا ظاهر بين في كلامهم عن قوى الصداقة والمحبة والاستقامة ... إلخ - كما رأينا الواجب توفرها في الزعيم وخاصة من النوع الأول عند تيد .

ثم إن هذه القوى مهما تعددت وتباينت فهي تنهى إلى قوة واحدة هي قوة السيادة والسيطرة فهناك إذن تشبه وازدواج في فهم الزعامة وهذا الازدواج ينحصر في أن هناك زعيم من ناحية يريد أن يملأ إرادته ويتغلب على غيره ويسوق أتباعه سوق الأنعام إلى ما يريد من مآرب وأغراض ، وهناك من ناحية ثانية جمع يسير سيراً اتباعياً لا يتقد ولا يحاول الجدل وإنما يأخذ بما يملأ عليه ، ويتحرك آلياً لتحقيق ما يرسم له من خطط وما يوضع له من أهداف . فهناك فكرة السيد والمسود ، والأعلى والمخفض ، وهناك فترة الآلية والانسياق غير الإداري فيما بين التابع والمتبوع ، وهذه أسس تخفض كثيراً من قيمة الزعامة ولا تجعلها وسيلة للتحرير وإنما للاستغلال والاستعباد . . .^(٢) .

ثم إن هذه النظرية تتكلم عن الزعامة وكأنها سليقة غرست في نظرة الزعيم منذ ولادته فهي فيه - حسب تعبير أرسطو - بالقوة *en puissance* ، ولا تزال تظهر فيه رويداً رويداً بالفعل *en act* ، فهي شيء بالطبع في بعض الأفراد ركب فيهم تركيباً شائواً ذلك أم لم يشاؤوا لأنهم ولدوا وحبهم الطبيعية بهذه القوى النفسية ، فهم لا بد يوماً ما يصبحون زعماء ربما عنهم . وهذا اتجاه غير سليم في فهم الزعامة اليوم من الناحية العلمية ، لأن أصحابه ينسون الأثر الاجتماعي الذي يتأثر به الزعماء في مجتمعهم وخاصة أثر البيئة وأثر التربية . ونحن لا نريد هنا بالبيئة البيئة الطبيعية الجغرافية كالتضاريس والمناخ والموقع الجغرافي . . . إلخ . وغير ذلك

(١) Règles, P. 126.

(٢) Linsberg : The psychology of Society, London 1928, P. 160, 161.

من العناصر المادية ، فليس لمثل هذه البيئة من أثر يذكر في الزعامة أو غيرها من الظواهر الاجتماعية وذلك لاختلاف طبيعة كل منهما ، وإنما نريد بالبيئة البيئة الاجتماعية^(١) . ولعل أهم عناصرها هي الأسرة ، فالأسرة هي المدرسة الأولى التي يشكل فيها الفرد على صورة المجتمع وذلك بتوجيهه الوجهة النفسية السليمة منذ حدثته كتهذيب الانتباه عنده ، وتنظيم الذاكرة ، وتقويم العادات وصقل الخيلة وإبعادها عن الغروض الوهمية التي لا طائل منها ، وتعويدته التحكم في الغرائز... إلخ وما إلى ذلك من نواحي التربية العقلية التي تشرف عليها الأسرة في شخص الأم والأب أو الإخوة والأخوات^(٢) . وكذلك بتلقيه الأسس الأخلاقية الاجتماعية وخاصة أصول العادات والعرف والتقاليد ، فالأسرة بهذا - وحسب تعبير أوجيست كونت - هي « القنطرة » التي يعبر عليها الفرد أي الزعيم من أنانيته الفردية الذاتية إلى الغيرية ومحبة الناس ، فهي وسيلة فعالة لربط الفرد بالمجتمع . ولهذا هي تلعب دوراً مهماً في تهذيب الأسس النفسية وصقل العناصر الأخلاقية اللازمة للزعيم . ومن هنا ندرك أهمية رعاية الأسرة في دعم نفسية وأخلاق الزعيم في نشأته الأولى ، وأن لا فائدة من قواه النفسية التي يتحدثنا عنها علماء النفس الاجتماعي إن لم تدعم دعماً قوياً بالعنصر الاجتماعي الذي يرفع من مستواها الفكري ويجعلها لذلك تنجّه إلى محبة الناس وإدراك معاني التماسك والتضامن الاجتماعي^(٣) .

وتهمل بعد ذلك هذه النظرية أثر التربية في خارج محيط الأسرة وهي التربية المدرسية التي يتلقاها الزعيم في معاهد العلم ودور الثقافة بمختلف درجاتها في المجتمع ، فالزعيم بوصفه فرداً يولد في نظر الاجتماعيين وله طبيعتان : طبيعة فردية ذاتية ، وطبيعة اجتماعية جمعية^(٤) . وأن الطبيعة الفردية التي يبني عليها علماء النفس الزعامة تابعة في الواقع وبما لها من قوى متعددة للطبيعة الاجتماعية . وهذه الطبيعة الاجتماعية عبارة عن « القوالب » التي تلبسها الطبيعة الفردية في دور العلم ، وهذه القوالب هي نواحي التراث الاجتماعي في أشكالها المختلفة سواء كانت فكرية أم أخلاقية أم نظم للحركات الجسمانية... إلخ . فالقوى النفسية الفردية غذاؤها التربية

(١) الدكتور علي عبد الواحد وافي - الرأية والبيئة ، مصر ١٩٥٠ ص ١١١ ، ١٢٢ ، ١٢٨ .

(٢) Thomas : L'éducation dans la famille, (nos fils), Paris 1919, P. 119.

(٣) Durkheim : Année Sociologique, T. I, P. 59, 60.

(٤) Durkheim : Education et Sociologie, Paris 1926, P. 49, 50.

الاجتماعية التي تربط الفرد بالمجتمع في ذاته ، فيشعر بفضل ذلك أنه متماثل ومتضامن معه ، فهي تربية تردد صدى الماضي ، وتثير ذكرياته السارة والمؤلمة ، وتوضح خطط الحاضر وتشرح آمال المستقبل ليتداخل الفرد في وسطه ومحيطه الاجتماعي العام ، وينعكس العقل الجمعي في عقله الفردي^(١) . وبهذا تعمل القوى النفسية للزعيم في إطار اجتماعي ولا يمكن أن تكون أساساً فريداً للزعامة لأنها في حاجة إلى ما يدعمها من عناصر التراث الاجتماعي المختلفة ، فالزعيم لا يخلق نفسه بقواه النفسية وإنما يخلفه المجتمع بما يتجسم فيه من الروح الكلية والقوى الجمعية .

نظرية القوى النفسية الخاصة بطراز معين من الزعماء ونقدها :

تحاول هذه النظرية تحديد شخصية الزعيم بناء على بعض القوى النفسية التي يتميز بها عن غيره من الزعماء ، كالأفكار التي يعتنقها ، والانتجاهات التي ينزع إليها والطباع والعادات السائدة عنده ، وغير ذلك من العناصر النفسية التي تتجمع فيه لتجعل منه فرداً فذاً . وقائداً له مسحة الخاصة التي تظهره للناس كشخص فريد في ذاته^(٢) . وأن هذه الشخصية الفذة بمشخصاتها الذاتية النفسية توجد في الزعيم عن طريق الوراثة : فهي فيه بالولادة ، غرسها الطبيعة في تركيبه ، والأيام كفيلة أن تبرز هذه القوى وتخلق الزعيم عند نضوجها فيه . وكفيلة كذلك أن تجعل منها دوافع آلية للزعيم ليفرض إرادته وسيطرته على غيره^(٣) . فالزعامة لا تكتسب ولا تأتي عواملها من الخارج ولا من المحيط الذي يعيش فيه الزعيم إنما تأتيه من الداخل ، فهي وضعت فيه وضعا وتظهر تلقائياً عند ما تكتمل عناصرها النفسية فيه ، فهي ترجع إلى التركيب النفسي الذاتي للزعيم^(٤) .

ولعل أهم من قال بهذه النظرية هو الأستاذ يونج Jung أحد تلاميذ فرويد Freud المشهورين ، فهو يضع تقسماً ثنائياً للزعماء ، فهم على نوعين : نوع يسميه extrovert أي انبساطي والثاني يسميه introvert أي انطوائي .

(١) الدكتور عبد العزيز عزت - مجلة علم النفس أكتوبر ١٩٥١ ص ١٦٩ .

(٢) K. Young : Handbook of social psychology London 1946 P. 148

Ibid., P. 231. (٤)

Ibid., 153. (٣)

الرعماء من النوع الأول لا يهتمون بحياتهم الخاصة ومسائلهم الشخصية وأهدافهم الذاتية وإنما يهتمون بحياة الناس وبأمور العالم الخارجى وبأهداف المجتمع ، فهم يتجهون إلى خارجية نفوسهم أى إلى العالم المادى والاجتماعى ، ولهذا يتميزون بقوة التعبير والإفصاح إلى الغير عن شئونه وشئون الحياة ، ويتميزون كذلك بقوة تحقيق هذه الأقوال أى لهم مقدرة التطبيق والأفعال ، فهم عمليون واقعيون ولا يسبحون فى عالم الخيال والنظر ، ونجدهم عادة فى ميدان السياسة والحروب بوجه خاص .

بينما النوع الثانى من الرعماء على نقيض ذلك يهتمون بالتفكير وتنظيم الآراء ، فهم نظريون يتجهون إلى داخلية نفوسهم لترتيب أفكارهم ووضع الخطط التى يرونها كفيلة لتحقيق مثل أعلى معين يفترضونه افتراضاً . وبهذا هم يبتعدون عن أرض الحقائق وعن عالم الشهادة ويعيشون فى برج عاجى يكتفون فيه بالنظر الخالص وعالم ما يجب أن يكون ، والحقائق لا تتعدى محيط رؤسهم ، وقيم الأشياء تشتق من أحكامهم الذاتية عليها بما لهم من معايير خاصة . فرعاتهم مثالية تجرى وراء رسم آمال لتنظيم العالم والمجتمع وتحسين حياة الناس فيهما ولكنهم فى تنظيمهم وتوجيههم يؤثرون ويحركون ويدفعون ، ولكن إلى أين ؟ هذا ما لا يعرفون واقعياً ، ذلك لأن قواهم الذاتية قوى فكرية خالصة فهم يميلون التفكير ويتشنون التأثير والإقناع ولكن تنقصهم قوى أخرى هى القوى العملية أى قوى التنفيذ والتحقيق ، ونجد مثل هؤلاء الرعماء فى ميدان الدين والأدب والتربية بوجه خاص .

إن هذا التقسيم المزدوج يتسع بعد ذلك عند يونج Jung لأنه يميز فى كل من النوعين أربع فئات : فن الرعماء فى نظره من يعتمد على التفكير ، ومنهم من يعتمد على الشعور ، ومنهم من يعتمد على الحس ، ومنهم من يعتمد أخيراً على الإلهام ، فيكون مجموع ألوان الرعماء ثمانية . ونحن لا يهمنا هنا تفصيل هذا التقسيم فليطلع عليه من يشاء فى كتابه^(١) . « الطرز النفسية » ، وإنما الذى يهمنا هو تحديد القوى التى يختص بها الرعماء من النوع الانطوائى . وتلك التى على عكسها عند الرعماء من النوع الثانى الانبساطى ، هذه القوى عند النوع الأول نتلخص فيما يأتى :

أولاً : الميل إلى الخوف من البيئة الخارجية ، والبعد عنها ، فكان هناك حجاب بين الرعيم وأتباعه ، وهو يحركهم من بعيد لا يشخصه عن الطريق المباشر وإنما

بطريق غير مباشر وهذا واضح في الزعامات الدينية التي لها صفة القداسة فقلما يرى التابعون زعماءهم الكبار ، فالبابا مثلاً لا يظهر لمريديه إلا نادراً وفي مناسبات معدودات .

ثانياً : الاعتماد في التأثير على المشاعر وعلى الإيماء .

ثالثاً : تعتمد الإبهام في موضوع الزعامة حتى يبقى الناس حيارى وفي حاجة دائمة إلى زعمائهم لعلهم يوضحون لهم ذلك تماماً . فالتوجيه ليس بواضح كل الوضوح في هذا النوع من الزعامة لأن الوضوح معناه ذهاب صفة القداسة منها . رابعاً : قوة المنفعة الذاتية وجعل محور التوجيه صالح الزعامة أما صالح الاتباع في المرتبة الثانية وليس هو بيت القصيد ويأتى بطريق غير مباشر^(١) .

وهناك من البحوث من يقسم الزعماء تقسيماً آخر ، فثلاثاً جان دي فين روج^(٢) Jean des Vignes Rouges ، يميز بين ثمانية أنواع من الزعماء كل منهم له صفاته النفسية الخاصة فهناك : أولاً - الزعيم القاهر الذي تغطي شخصيته على الناس فيخضعون له عن طريق التخدير والتأثير الآلى كأن له قوة خفية تأسره وتسيرهم وراءه وكأنهم مخدرين . وهو يفرض نفسه بنفسه عليهم ، معتمداً في ذلك على قواه النفسية التي أهمها قوة الإرادة وقوة الابتكار والتصور وقوة المخاطرة .

ثانياً : وهناك الزعيم الوقور ، وزعامته زعامة أبوية ، والعلاقة بينه وبين أتباعه علاقة شعورية كلها المحبة والاحترام لأنه يرعاهم ويعمل على قضاء مصالحهم وتحقيق أغراضهم الكلية . ويمثل هذا عادة رؤساء النقابات ، والعمد والرؤساء من الموظفين وأهم صفاتهم النفسية المقدرة على العمل وتنظيمه ، وقوى التفكير الواضح المرتب .

ثالثاً : وهناك الزعيم المغرى وهو الذي يعرف كيف يبهر سامعيه ويكسب ثقتهم ويضم أصواتهم إليه . وهذا النوع يمثل الزعماء السياسيين الذين يظهرون في الغالب أيام الانتخابات العامة ، ويمتازون بالقوى بالنسبة الآتية : بمحبة الهجوم والصراع ضد من يخالفهم في الرأي من الأحزاب الأخرى ، وبالاستبداد في الرأي وفرضه على غيرهم ، بقوة الذكاء العملية ، وبقوة الحسد والنقمة ومحبة الاعتراض والثورة ، وبقوة المغالطة في إعطاء الحجج لدعم كلامهم وبياناتهم ، فهم يبالغون

Ibid. (١)

Jean des Vignes Rouges : Deviens un chef, essai sur l'éducation des facultés supérieures et de l'aptitude à l'commandement, Paris 1936, chap. V. (٢)

في كل ما يعرض لهم كى يؤثروا على الغير بأى ثمن كان .

رابعاً : وهناك الزعيم الساحر ، وهو زعيم جذاب يبتسم كثيراً ويخاطب متبعيه عن طريق المشاعر والمواطف ، وهم في اتباعهم له لا يجدون غضاضة في ذلك ، وإنما يقبلون زعامته في ارتياح ورضا لأنه شخصية مرحة وتخلع عليهم كثيراً من السرور والغبطة والتفاؤل . وهؤلاء الزعماء يكونون في الغالب من رجال الدين ومن الوعاظ الذين يبشرون بالفضائل والروح الإنسانية ، وأهم قواهم النفسية : قوة الذاكرة ، وقوة الإيحاء ، وقوة المرح ، وقوة الحذر مع سرعة في الحكم على الأشياء بما يناسب مشاعر التابعين .

خامساً : وهناك بعد ذلك الزعيم الماهر وهو الشخص الذى يعرف يتصيد ثقة الناس وخاصة في الميدان السياسى لمصلحته الخاصة ، فهو رجل وصول يريد الوصول إلى مآربه على أكتاف الآخرين مستعملاً في ذلك كل الطرق المشروعة وأحياناً غير المشروعة كأعطاء الوعود الكاذبة ونشر الأخبار المبالغ فيها وتدبير المؤامرات فالقيم الأخلاقية نسبية في نظره وليست لها أهمية كبرى عنده . وأهم صفات مثل هذا الزعيم : الذكاء ، والتفكير المنظم ، وقوة الانبعاث ، وقوة الترويج ومعرفة ميول الناس ، وقوة الابتكار والخيالة ، والضعف الأخلاقى .

سادساً : وهناك الزعيم المنطقى وهو الذى يفكر تفكيراً هادئاً مترناً وينظر إليه متبعوه كأنه رجل عادل يتدبر في صالحهم أجمعين . وهم إن وثقوا فيه فإن ثقتهم تبنى على التحمس له والإعجاب به لما يتخذه من أسس واضحة في تفكيره ووثيقة النتائج الطيبة لما في هذا التفكير من الدقة والتحرى . ولكن هذا التفكير له الصفة النظرية في الغالب ولا يتحقق واقعياً ويظهر مثل هؤلاء الزعماء في الهيئات الاجتماعية عند رغبة إصلاحها وتنظيمها بما يكتبون من تقارير وما يضعون من مشاريع لتبديل أحوالها من حسن إلى أحسن وهم يتصفون بقوة التفكير المنظم وبالحكمة وبالفضيلة وبالذاكرة القديمة ولحبة العمل وقوة الإرادة . . . إلخ .

سابعاً : وهناك الزعيم الفنى ، وهو الرجل المبرز في مهنة معينة . فيعرف أصولها تماماً ويبدى مهارة فائقة فيها ويبرز أقرانه فيها . واحترامه يأتيه من فنه واجتهاده فيه . ومتبعوه يملونه لأنه أرقى منهم في فهم المهنة وأصولها ، ونجد هذا النوع من الزعماء في سائر المهن وخاصة في الطب والجيش والجامعات . . . إلخ . ويتميزون عادة بسلامة الذوق ، والذكاء ، وصواب الحكم والتقدير ، ومحبة العمل ، وقوة

الصبر والاحتمال ، واحترام النظام .

ثامناً : وأخيراً هناك الزعيم الخالم : وهو الذى يخاطب متبعيه عن طريق الخيلة ، فيخترع لهم أوهاماً يصدقونها وأكاذيب يأخذون بها ، وخرافات يعتقدون فيها ، وأغلبهم ممن خاب في الحياة الجارية . فيعمدون إلى هذا النحو من الشعوذة والعبث بمشاعر البسطاء والدمماء ، وأغلب دعواتهم شاذة خارجة على أصول السنن الاجتماعية المتبعة ، كمن يدعو مثلاً بالنبوة أحياناً أو من ينشر مذهباً إباحياً في الفن أو الأدب . . . إلخ . ويتميز هؤلاء الزعماء بالقوة الخالمة واتساع الخيال والتزعة الصوفية ، وقوة التنبؤ ومحبة معرفة الغيب : وقوة الإيحاء ، وعدم ثبات الإرادة والميل إلى الأوهام والبعد عن الواقع . . . إلخ^(١) .

إن فكرة الطراز الشخصى للزعماء فكرة غير علمية بدليل اختلافها من تفكير إلى آخر ، فهى مثلاً على نوعين أساسيين عند يونج Jung ، وهى على ثمانية أنواع عند جان دى فين روج ، - كما رأينا - ويصح أن تكون على عدد أقل أو أكثر عند غيرهما . وهذا الاختلاف فى تقسيم طرز الزعماء يدل دلالة واضحة على أنه تقسيم شخصى ، وتصنيف خاص ، فهو يبعد كل البعد عن الموضوعية ، وعن الروح العلمية التى تقول بالعمومية ، لأن كل ما هو علمى عام وصحيح من شخص لشخص ومن مكان إلى مكان ومن زمان إلى زمان^(٢) .

ثم إن القوى النفسية التى يتحدثون عنها فى كل طراز من الزعماء شىء وهمى يفترضونه افتراضاً من نبات أفكارهم ولا يقوم على استقرار أو ملاحظة علمية لأن لكل مفكر الحرية الكاملة فى وضع هذه القوى وبالعدد الذى يهواه لا كما يشاء الواقع . وهم يفعلون ذلك لأن الواقع نفسه لا يسمح بتحديد ذلك ، فمن الصعب الدخول فى نفسية هؤلاء الزعماء وتقرير طبائع نفوسهم ، فالطريقة التى يتبعونها فى ذلك طريقة ترجيحية تخمينية لا حتمية ، فهى بهذا بعيدة كل البعد عن العلم الذى يقوم على الاستقراء والملاحظة الخارجية^(٣) .

ثم إننا لو تمعنا فيما يذكرون من القوى النفسية والصفات الروحية نجد بعضها صفات أخلاقية ، ونحن لم نذكرها ولم نشر إليها وخاصة فى حالة تقسيم جان

Idid., p. 61-100 (١)

Lalande : Lectures sur la philosophie des Sciences, Paris 1924, P. 13 e (٢)

Ibid., chap. IV. (٣)

دى فين روج بطرز الزعماء لأنها لا تهمنا كثيراً هنا ، ولكن ذكرهم لها يدلنا على أنهم يخلطون بين مجال البحث من الناحية النفسية ، وبين مجاله من الناحية الأخلاقية ، وعدم تحديد مجال البحث والحرص عليه ، والاستمرار فيه ، يتنافر - وكما قدمت - مع الروح العلمية . لأن هناك مواضيع معينة يمكن دراستها من نواح مختلفة ، وإذا عرض لها الباحث من ناحية محدودة وجب الاستمرار فيها وعدم خلطها بالنواحى الأخرى والتي من اختصاص غيره ، وهذا كى يقوى الاختصاص والتعمق فى البحث من ناحية واحدة ولئى تجلى الموضوع تماماً ولا يخفى فيه شئ من ناحية معينة . ولو فعل كل باحث هذا من ناحية تخصصه ، وضحت طبيعة الشئ المدروس بعد ذلك فى جلاء ووضوح من نواحيه المختلفة وهذا ما يقول به العلم وروح التخصص فى وقتنا الحاضر وهذا ما يجله بعض علماء النفس الاجتماعى (١) .

لهذه الأسباب بلجأ بعض المفكرين الاجتماعيين إلى بناء هذه الطرز على أساس اجتماعى وهو أساس له سند من الواقع هو الهدف الاجتماعى الذى يرى إليه الزعيم والوظيفة الاجتماعية التى يبغي ملأها فى المجتمع بين الناس . وهم يتفاوضون عن ذكر قوى أو صفات نفسية للزعماء ، لأن الزعامة لا تقوم على أساس داخلى نفسى فى هذه الحالة وإنما على أساس خارجى مصدره المحيط الاجتماعى الذى يعيش فيه الزعيم . ولقد حاول كثير من هؤلاء المفكرين تحديد أنواع الزعماء بناءً على هذا الأساس الاجتماعى ، ولعل أهمهم هو سير ولیم مارتن كوفرى (٢) فهو يقسمهم إلى ثلاثة أقسام :

أولاً : ما يسميه بممثلى الجماهير وهم نوع من الزعماء يعرفون الهدف الاجتماعى الذى تتحرك له الجموع البشرية كمبادئ العدالة الاجتماعية والمساواة بين الطبقات ، وفضائل الديمقراطية . . . إلخ . وغير ذلك من المواضيع الخلابة التى تلقى هوى فى نفوسهم ، ولها تأثير فى مجرى حياتهم فى المجتمع فيضرب الزعماء على هذا الوتر الحساس بوضع برامج سياسية واجتماعية تشمل الوسائل الكفيلة بتحقيق هذه التزعات ، وتصوير النتائج الاجتماعية الهامة التى يصح أن يصلوا إليها بناء على هذا التحقيق ، وعادة يظهر هؤلاء الزعماء فى فترات الانتخابات العامة وقيام الاقتراع العام فهى زعامة ديمقراطية .

(١) Lalande: Vocabulaire philosophique, Paris 1928, P. II, P. 738, Règles, PP 120-126

(٢) Sir Conway : The crowd in peace & war, London 1913, chaps. 6, 7, 8.

ثانياً : ما يسميه بمروضي الجماهير وهم زعماء يفرضون أنفسهم على الناس فرضاً ، ويطبعون حياتهم بطابعهم الخاص ، فهي زعامة مستبدة غير ديمقراطية تقوم على القوة ، ويصور هذه الزعامة في التاريخ رجال الحرب الذين فتحوا البلاد ونظموها تنظيمًا كالإسكندر الأكبر قديماً و نابليون بونابارت حديثاً .

ثالثاً : ثم هناك أخيراً ما يسميه سير كونرى بأصدقاء الجماهير وهم أولئك الذين يدركون سلفاً ميول الجماهير ونزعاتهم الخاصة فيخاطبونهم حسب مشاعرهم وأهوائهم فنقع زعامتهم عندهم موضع الرضا والقبول ، فهناك تماسك وتبادل بين الزعماء من هذا النوع وتابعيهم ، فهم لسانهم الناطق المعبر عن أغراضهم في الحياة الاجتماعية ، والزعيم في مخاطبتهم يشق براجه وموضوعاته من رغباتهم وميولهم وهو يدرك هذا بما له من قوى الحس الاجتماعي . فيرى - على حد تعبير كونوى - رغباتهم « تبخر صاعدة أمامه في الهواء » وينتهي عادة إلى نتائج « يصبها عليهم صباً » . فتبدو عندهم عذبة مستساغة ، ويعطى مثلاً لذلك بالزعيم الإنجليزي جلادستون Gladstone ولويد جورج Lloyd George^(١) .

وجهة نظر علم الاجتماع :

يتضح للقارىء من روح النقد الذي تقدم أن علم الاجتماع من ناحية الأساس لا يبين الزعامة على قوة الفرد سواء كانت هذه قوة جسمية أو قوة نفسية واحدة أو قوى نفسية متعددة ، أو قوى نفسية خاصة بطراز معين لبعض الزعماء - كما رأينا - وإنما هو يعتبرها ظاهرة اجتماعية ، ومعنى هذا أن الزعامة شيء اجتماعي سابق لوجود الزعيم ، وأنها « قالب » موجود في المجتمع يلبسه الزعيم ، فهي خارجية عن نفسه تأتيه من المحيط الذي يعيش فيه شأن الظواهر الاجتماعية كلها^(٢) . وبهذا تصبح الزعامة عبارة عن موجة اجتماعية تسرى بين الناس في وقت معين ومكان معين بخصوص موضوع محدود ويشعر الناس بنوع من الغموض والإبهام في فهم هذا الموضوع الحيوى بالنسبة إليهم فيتلتمسون من يوضحه لهم ، ويفصح عنه بأبلغ بيان^(٣) . فالزعيم لا يأتي بشيء من عنده وإنما هو المعبر الصادق عن إحساسات

(١) الدكتور عبد العزيز عزت - السلطة في المجتمع مصر ١٩٤٩ ص ١٥ و ١٦ .

(٢) Règles, P. 9 .

(٣) الدكتور عزت - رأى ص ١٠

الجماعات والجمهير ، وهو لا يمثل نفسه ولا يعتمد على قواه النفسية ، وإنما يمثل العقل الجمعى ، ويعتمد على روح الجماعة بحيث يصبح الزعيم شخصاً معنوياً يظهر تلقائياً فى المناسبات الاجتماعية الهامة ليتحمل مهمة القيادة لأن الناس آنسوا فيه مقدرة التعبير عن مراميهم وأهدافهم الجمعية فى وضوح ، فأصبح لسانهم الناطق ، ولهذا ليست الوراثة هى التى تخلق الزعيم كما يتوهم بعض علماء النفس الاجتماعى وإنما هو المجتمع الذى يوجد ويظهره فى المناسبات الاجتماعية الخطيرة (١) .

ومن ناحية الغرض لا تقوم الزعامة على الاستبداد والقوة والخوف مما للزعيم من هبة وبطش ، وإنما الزعامة من ناحية علم الاجتماع زعامة ديمقراطية لا تنجبه من أعلى إلى أسفل أى من الزعيم إلى أتباعه ، من الممتاز إلى العاديين (٢) ، فهو لا يقر الفروق بين الاثنين وإنما يساوى بينهما وهناك تماسك وتداخل فيما بين الزعيم وأتباعه لا ينفصل أحدهما عن الآخر وإنما هما شيء واحد بوجهين ، كعملة النقود بوجهيها اللذان لا ينفصلان . بل يميل هذا العلم إلى أن يجعل الأصل فى الزعامة الجماعة نفسها ، فهى تذهب منها إلى الزعيم (٣) وليس هناك فى هذا الذهاب أوطى أو أعلى وإنما هناك تكافؤ لأن الهدف مشترك فيما بين الزعيم ومريديه فهو فهم وهدفه فى آن واحد وهو هدف كلى جمعى خلق فيما بينهما عن طريق التضامن لما يحس به كل منهما من الروح القومية الغالبة التى تنشط على كليهما وتدمعهما من طريق واحد للوصول إلى غاية واحدة (٤) .

ومن ناحية الوسيلة فالزعامة لا تقوم على الخوف والإرهاب وإنما على الجاذبية ، فليس هناك ضغط من الزعيم على أتباعه . والزعيم لا يتمثل فى شكل قاهر ملزم للجماعة أن يستر وراءه كما يهوى ويريد ، وإنما العكس هو الصحيح ، فالجماعة هى التى تضغط على الزعيم وتهىء له الجو وتظهره ليميز عن غيره باسمها ، فهو يشعر أنه منساق فى تيار جمعى (٥) ، لا يمكن أن يصده ، ويتحتم عليه أن يحاربه خوفاً من الازدراء الكلى من جهة ، ورغبة فى البصيرة الجمعية التى ترفع من شأنه

Le Suicide, 115-117 (١)

Les lois de l'imitation, P. 235. (٢)

Brown: Psychology & the social order, New York 1936, P. 348. (٣)

Règles, P. 6. (٤)

Règles, P. 9 (٥)

في أعين الناس من جهة أخرى ، فالضغط الجمعي هنا ضغط محبب إلى نفس الزعيم ولا إكراه فيه لأنه فيه فائدته وفائدة المجموع على السواء^(١) . والدليل على ذلك أن بعض الزعامات لها مخاطرهما وخاصة الزعامة السياسية القومية في البلاد المستعمرة حيث يتعرض الزعماء للاضطهاد والنفي والتشريد ومع ذلك هناك من يثبت منهم في وجه الغاشم المحتل مهما أودى وكلفه هذا البذل والتفطحية في سبيل الوطن وبين قومه . فهما ضغط المجتمع على الزعيم لتصدر فهذا ضغط لبس بمهرق عنده لأنه واجب عليه تأديته برحابة صدر وبإخلاص وشوق . فهناك إذن جاذبية — كما قدمت — بين الزعيم والجماعة أساسها التضامن والتفاسك فيما بين الاثنين^(٢) . لا اشتراكهم في هدف اجتماعي سام واحد وهو في صالحهما معا . ولعل الزعيم سعد زغلول في مصر هو أكبر من يمثل ذلك . فهو رغم شيخوخته وبسطة عيشه ، أجبره المجتمع المصري في فترة سنة ١٩١٩ على أن يتزعم وأنه يقود الحركة الوطنية باسم مصر ، وأن ينقلب من مناصر للإنجليز إلى عدو لهم^(٣) . وقد لاقى في سبيل ذلك كثيراً من الاضطهاد والنفي ومع ذلك لم يتوان عن القيام بواجبه نحو وطنه مهما كلفه ذلك من تضحية ، ذلك لأن هناك جاذبية وترابط بينه وبين الناس من حوله لتحقيق غاية عليا هي الاستقلال القومي .

وهذه الجاذبية من شأنها ألا تقضي على الحرية فيما بين الزعيم وأتباعه فيكون هؤلاء كالأنعام تسير بلا إرادة وراء راعيها ، وتكون إرادة الزعيم هي الغالبة ، فهو الذي يوجههم الوجهة التي يرضاها دون أن يجد من الاتباع جدل أو نقاش . إن الزعامة من الناحية الاجتماعية على عكس ذلك ، هي زعامة ديمقراطية لا استبداد فيها من ناحية الزعيم وتقوم على تبادل الرأي وعلى توجيه الزعيم إلى الطريق السوي الذي ترسمه له الجماعة ، فالعقل الجمعي هنا لا يلغى أمام العقل الفردي للزعيم كما يتوهم بعض علماء النفس الاجتماعي ، وإنما هو العقل الجمعي الذي يسود^(٤) ، وهو الذي يوحى إلى العقل الفردي أي الزعيم كيف يسير وكيف يقود وكيف يخطو إلى الإمام . فعقل الزعيم ينصهر في العقل الجمعي^(٥) ، وهذا

(١) Ibid., préf. 2e. édit., P. 20, 21.

(٢) Ibid., 23.

(٣) تشارلس آدمس — الإسلام والتجديد مصر ١٩٣٥ ص ٢٢١ .

(٤) Brown, op. cit. P.P. 333-337.

(٥) Education et Sociologie, P. 49, 50.

يسيطر عليه ويصبغه بلونه كي ينطق الزعيم باسمه ولا يجيد عن إجماع الجماعة وينفذ كلمتها بإخلاص^(١). وهذا ليس باستبداد من الجماعة لإزاء الزعيم ، لأنه ليس ذا كيان منفصل بنفسه بعيداً عن محيطه الاجتماعي ، وإنما هو شخص معنوي يمثل الروح الكلية . ومن هنا ليس هناك تعارض ولا اختلاف في الرأي بين الطرفين : وإنما هناك تضامن بناء على اتجاه واحد في التفكير فيما بينه وبين أتباعه . والاختلاف إذا نشأ فيما بينهما فهذا شيء عارض ولا بد من أن ينتهيا إلى الوفاق والسير في اتجاه واحد ، ومن هنا قامت الحرية فيما بينهما^(٢) ، فالزعيم أن يوجه وللجماعة القبول إذا شاءت ، ولها بدورها حق الإرشاد ، وله كذلك حق القبول . وإذا قام الرفض من ناحية أحدهما فللأخر بعد ذلك أن يتفقا على ما يوحد فيما بينهما للوصول إلى الهدف الجمعي المشترك ، وهذه هي الحرية بعينها وانعدام الاستبداد فيما بينهما^(٣) ، فالزعيم لا يقضى على حرية أتباعه كما يتوهم بعض علماء النفس الاجتماعي ، وإنما هي الجماعة التي تبيح له التوجيه كما يهوى في الحدود التي رسمتها له ، فهي لا تحرم الزعيم من حريته ، وإنما هذه الحرية مكفولة بما دام احترامه لإدارة المجموع^(٤) ، ولهذا كانت الزعامة في أساسها كما قدمت ظاهرة اجتماعية : مصدرها الجماعة ، وهدفها الجماعة نفسها ، ووسيلتها اجتماعية هي الحرية .

ولعل من أكبر أخطاء علماء النفس الاجتماعي بعد ذلك تحدثهم عن الزعامة وكأنها شيء واحد : بلونه المفكر كما يهوى ، فيقسمه مثلاً في عدد يقل أحياناً ويكثر أحياناً أخرى كما رأينا عند يونج Jung وجان دي فين روج Jean de Vignes Rouges . ولكن علم الاجتماع لا يقر هذا ، فالزعامة عنده زعامات ، فهي ليست شيء واحد بذاته ، وإنما هي شيء اجتماعي متعدد صورته وأشكاله حسب الأوضاع الاجتماعية ، فهو ينظر إليها « بالجمع » لا « بالمفرد » . وهذا التعدد لا يتركز على تصور المفكر الخاص ، والعدد الذي يعطيه ليس من عنده وكما يهوى وإنما هذا التعدد يشق من الطبيعة الاجتماعية نفسها . وهذه الطبيعة قسمت

(١) الدكتور عزت ، رأى ، ص ١١ .

(٢) Durkheim, Sociologie et philosophie, Paris 1924, P. 106.

(٣) Ibid.

(٤) Règles, préf 2e. édit., P. 23.

منذ زمان أوجيست كوفت Auguste Comte - أبو علم الاجتماع في أوروبا - إلى طبيعة استقرارية Statique وإلى طبيعة تطورية dynamique^(١) ، غير أن كونت فصل بين هاتين الناحيتين في فهم طبيعة المجتمع وظاهراته مع أنهما متصلين تمام الاتصال في كل ظاهرة من الظواهر الاجتماعية^(٢) . ومن ضمن هذه الظواهر كما قدمنا الزعامة ، فإذا أردنا حصر أنواعها وجب تحديد هذه الأنواع حسب الطبيعة الاستقرارية ثم حسب الطبيعة التطورية .

لقد تعددت أشكال الزعامة من الناحية الاستقرارية حسب تعدد الظواهر الاجتماعية نفسها ، ولعل أهم هذه الظواهر - كما يذكر دوركيم^(٣) - ست هي : الدين ، والأخلاق ، والسياسية ، والاقتصاد ، واللغة ، والجمال . فهناك إذن زعامة دينية ، وزعامة أدبية ، وزعامة سياسية ، وزعامة اقتصادية ، وزعامة في البلاغة والتعبير ، وزعامة في مختلف أبواب الفنون الجميلة وعلى هذا النوع من الزعامات تقوم الحياة الاجتماعية في مكان معين وفي زمان معين . وهي زعامات تبغى التوجيه السليم فتستقر الحياة الاجتماعية فتتربط مظاهرها وتخطو إلى الأمام لأن الاستقرار شرط أساسي للنشاط الاجتماعي المنتج الذي يكفل حركة التطور نحو التقدم والارتقاء .

ولعل أهم هذه الزعامات الست اثنتان : الزعامة السياسية والدينية لما لهما من هدف حيوي في صميم حياة الجماعة . فالأولى توحد بين الناس وتسوسهم لدينهم ، والثانية تجمع كلمتهم وترفع مستواهم الأخلاقي لآخرتهم . ولأن هاتين الزعامتين مترابطتين تقريباً في كل العصور ولا يمكن فصل السياسة عن الدين^(٤) ، فكل منهما متمم للآخر لتستقيم حياة الناس في المجتمع . فقديمًا اعتمد الملوك والحكام على الدين فاعتلوا العروش باسم الله وبمباركة الكنيسة ، وحديثاً في الديمقراطيات ، تعتمد السياسة على الدين في تقوية الروح المعنوية في الجيوش ، على التبشير لتحذير نفوس المفتوحين لاستغلالهم^(٥) .

(١) A. Comte ; Cours de philosophie positive, Paris 1908, T. ٤V., P.P. 287-328.

(٢) الدكتور عبد الواحد وافي - الفلسفة الاجتماعية لابن خلدون وأوجيست كوفت ، مصر

١٩٥١ ص ١٥ .

(٣) Durkheim : De la méthode dans les Sciences, Paris 1928 T. ٤., P. 326.

(٤) Faguet : Le libéralisme, Paris 1902, P. 110 et suiv.

(٥) Siger : Essai sur la Colonisation, Paris 1907. P. 93 et suiv.

وبقدر ما تقوى هتان الزعامتان في أمة من الأمم بقدر ما يعلو شأنها وتسود كلمتها في داخليتها وخارجيتها ، والمثل واضح في أكبر أمة وأكبر إمبراطورية معاصرة وهي إنجلترا ، فالسياسة تحترم الدين وتجله والدين من الدعامات السياسية القوية^(١) .

أما الزعامات من الناحية التطورية فعددها يتناسب مع تطور الأشكال الاجتماعية . وهذه الأشكال قد تتعلق أحياناً بالمجتمعات المتأخرة البدائية فتتألى بالشكل الآتي : ذاهية من البسيط إلى المركب : المعشر ، فالعشيرة ، فالاتحاد فالقبيلة^(٢) . وقد تتعلق أحياناً أخرى بالمجتمعات التاريخية القديمة : وتتألى بالوضع الآتي : المدينة ، فالإمبراطورية القديمة فالإقطاع^(٣) . وقد تتعلق بعد ذلك بالمجتمعات التاريخية الحديثة فتتألى من الأمة إلى الإمبراطورية الحديثة إلى المجتمع الدولي^(٤) .

أما بالنسبة للمجتمعات المتأخرة فكانت الزعامة ولا تزال تتركز في الساحر Le magicien ، لأن الساحر كانت له عدة وظائف هامة وحيوية لها أثرها الفعال في حياة الناس في المجتمع^(٥) ، فهو طبيههم الذي يشخص لهم الداء ويصف لهم الدواء : وهو عرّافهم الذي يكشف لهم عن الغيب وينبؤهم بما سيحدث في المستقبل : وهو ملازمهم الأعلى في الملمات يضع لهم الطرق العملية للخلاص منها عن طريق قوة الأرواح الخفية . . . إلخ ، فالساحر بهذا شخصية اجتماعية لها خطورتها ولها أثرها على سائر أفراد العشائر والقبائل بل وعلى رؤسائهم كذلك فما كان لأحد منهم أن يتندى في عمل أو مشروع معين كالصيد أو الحرب . . إلخ إلا بعد استشارة الساحر . فهو عقلهم الهادي الذي يرشدهم إلى سواء السبيل . ويقوم الساحر بهذا مقام العلم والمعرفة عندنا في الشعوب الراقية^(٦) .

أما في الجماعات التاريخية القديمة ، ففي المدن اليونانية والرومانية مثلاً كان الزعيم هو الفيلسوف Le philosophe ، فهو الغاية التي يريد أن يصل إليها سائر

(١) Le suicide, P. 160, 161.

(٢) Règles, 102-105.

(٣) ibid.

(٤) Durkheim : L'éducation morale, Paris 1925, P.P. 83-89.

(٥) Hubert et Mauss : Mélanges d'histoire des religions, Paris 1929, P. 140 et

Préf. P. XIX

(٦) Ibid., Préf. P. XVIII.

الناس حتى الحكام والملوك منهم ، ومن لم يصل إليها من هؤلاء الأخيرين اتخذ له من أهل الفلسفة مستشارين وهداه كما كان الحال في أرسطو مع الإسكندر الأكبر وفي شيشرون مع قيصر ، وفي مارك أوريل الذي وصل إلى مقام الفلاسفة بنفسه^(١) . فالفيلسوف هو زعيم الزعماء عند أهل المدن القديمة في أوروبا ، وهو العقل الناضج الراجح الذي يدرك الحكمة التي تحقق السعادة للناس في المجتمع والسعادة للفرد فيما بينه وبين نفسه ، وهو الذي يرسم الطريق واضحاً أمام الناس في المدينة ليصلوا إلى الحق والخير والجمال ، فهو إذن الإنسان الكامل الذي يبغي الكمال لغيره عن طريق المنطق والتفكير السليم وعن طريق الفضيلة والفضائل وعن طريق إدراك القيم الفنية الجميلة في سائر أنواع الموجودات^(٢) .

أما في العهد الوسيط فكانت في معناها الراقى تتمثل في القديس Le Saint أى في رجل الدين الذي يعيش لآخرته ولا يسعى وراء شهوات البدن وسغريات الحياة وأطباع الدنيا ، ولهذا كان المقام الأول في المجتمع للزعامة الدينية . وكان رجال الدين يكونون الطبقة الأولى التي تسبق في تربيها طبقة الملوك والحكام^(٣) ، وكان لها نفوذها المؤكدة الفعال في حياة سائر الطبقات ، فهي التي تأمر بخضوع المستضعفين للأقوياء وهي التي تخضع لها هؤلاء جميعاً ليسيروا حسب تعاليمها . وبلغت هذه الطبقة من القدرة والقوة في ذلك العهد أن سخرت الفريقين الملوك والرعايا لإفناء أنفسهم في سبيل الدين بأثارها الحروب الصليبية ضد الشرف لمدة دامت طويلاً وبذلوا في ذلك كل غال وثمين من الأنفس والمال والزاد والمتاع في سبيل الدين وتحت تأثير رجاله وزعامتهم^(٤) .

أما في المجتمعات التاريخية الحديثة في أوروبا فقد تحرر الناس بفضل حركة النهضة وحركة الإصلاح من النفوذ الديني ، وظهرت القوميات منذ القرن السادس عشر ، وحكم ملوك أقوياء وجهوا الشعوب الأوروبية^(٥) . وقبوا كياناتها واتخذوا

Bréhier ; Histoire de la philosophie, Paris 1927, II, Vol. II, P. 428. (١)

Bouglé, Bréhier, Delacroix... Du Sage Antique au citoyen moderne, Paris (٢)

1921 P.P. 5-57.

Ibid., 57-117. (٣)

Ogburn & Nim koff : A handbook of Sociology, London 1947, P. 211. (٤)

Robinson : The ordeal of civilization, New York 1926, P. 114. (٥)

Lucas : A Short history of civilization, New York 1943, P. 519, 512, 582. (٦)

لمساعدتهم في مآرب حكمهم وتنفيذ سياساتهم طبقات من النبلاء والأشراف ، فكانت الزعامة تتركز في هذه الأرستقراطية الحاكمة فكان الزعيم هو السيد Seigneur الذي يمتاز بالغنى وحب القروسية وميله إلى الترف وغير ذلك من مظاهر الحياة التي سادت في الدول الملكية التي سبقت قيام الثورة الفرنسية في أوروبا^(١)

ولكن بعد هذه الثورة دالت دولة الملوك والأمراء والنبلاء والأشراف . . . إلخ . وغير ذلك من العناصر التي كانت لها السيادة المتوارثة^(٢) ، وقامت عوضاً عنها زعامة الكفائيات من أهل البلد الواحد فكان محور الزعامة هو الوجود القومي وأن الزعيم هو مواطن صالح كبير Un grand Citoyen ، وكبره يأتي من أنه يملأ وظيفة في المجتمع عن جدارة واستحقاق فزعامة تخرج من مجهوده وكده وكفائياته الممتازة لا من حبه ونسبه وجاهه وغناه . . . إلخ . فالزعامة في هذا الطور لم تنم على الوراثة والمولد وإنما على المجهود الخاص الذي يبذله الزعيم في سبيل الجماعة سواء كانت هذه الجماعة هيئة من الهيئات كالأمرة أو المهنة . . . إلخ . أو الجماعة بالمعنى العام أي المجتمع بأسره^(٣) .

ثم تطورت الزعامة في العهد المعاصر نحو أفق اجتماعي أوسع وأشمل وهي الزعامات الدولية التي لا تنحصر في محيط اجتماعي ضيق محلي أو قومي ، وإنما إلى محيط يتخطى حدود الجهة الواحدة أو البلد الواحد إلى بلاد متعددة . فهناك من الزعماء من يدعو مثلاً إلى تكوين وحدات إقليمية تتحد في مصالحها المشتركة ، وتوجه شئونها الاجتماعية وجهة واحدة تحقق ما لها من مصالح مشتركة . وهناك من يدعو إلى قيام حكومة أوروبية واحدة بناء على نظام اتحادى فديرالى^(٤) . ومنهم من يقول بسيادة الرأسمالية والروح الدولية internationalisme ، ومنهم من يقول بسيطرة الزعامات اليسارية المتطرفة وبالروح العالمية Cosmopolitisme إلخ . وهذه دعوات^(٥) لها رجالها الذين يترفعونها في السر والعلانية لطبع حياة الأمم بطابع خاص غالب ، ولعل هذه الزعامات وهذه الدعوات هي التي تسبب اضطراب العالم الذي نعيش فيه الآن في أواسط القرن العشرين ، ننحى في حرب باردة .

(١) Du Sage, P.P. 117-195.

(٢) Barnes : Social institutions, New York 1942, P. 212.

(٣) Du Sage, 195-245.

(٤) De Jouvenel : Vers les Etats - Unis d'Europe, Paris 9130.

(٥) Lloyd : Democracy & its rivals, London 1940, P.P. 41ff, 158ff.

وتعمل الأمم بسببها على التسابق في التسلح وتسخير العلم في سبيل الوصول إلى مخترعات ومبتكرات مهلكة فناكة كالقنبلة الذرية والهيدروجينية . . إلخ . ولقد أخذت تقوى هذه الزعامات وهذه الدعوات منذ سنة ١٩٠٧ فقال بذلك بتلر Butler مدير جامعة كولومبيا بأمريكا الشمالية ثم الرئيس ولسن ثم الرئيس روزفلت ثم تشرشل في إنجلترا . وهذا في المعسكر الغربي ، والمعسكر الشرقي في هذا الميدان كذلك رجاله . والصراع لا يزال قائم على تكييف الدعوة والزعامة الدولية حسب المبادئ الخاصة لكل دولة من الدول المعاصرة (١) .

ويعمل القول إن الزعامة لا تقوم على أساس جسمي فيفرض الزعيم بما له من هيئة بدنية وقوة عضلية إرادته على غيره ويسير أتباعه وراءه سير الأنعام دون أن تكون لهم حرية في مناقشته . وهي لا تبنى كذلك على قوة نفسية خاصة يقهر متبعيه وتسخرهم وتضطرهم إلى الخضوع له في شكل تحذيري كما يتوهم تارد ومن هنا نحوه . وهي لا تركز على قوى نفسية عامة تتجسم في الزعيم فتجعل منه قطب الرحى في حياة الناس يملئ بفضلها نفوذه عايمهم وتجعله في مقام أسمى وأرقى من متبعيه فيأتونه في مرتبة أحط ومقام وضع . وهي بعد ذلك لا تقوم على قوى نفسية خاصة بطراز معين من الزعماء ، يولدون بها وتعمل الوراثة على تأكيدها وبظهورها تطور حياتهم الذاتية فتتحقق الزعامة فيهم فعلا بعد أن كانت فيهم كامنة بالقوة . إن كل هذه فروض فلسفية خاطئة ولا تصور لنا الزعامة في طبيعتها الحقة ، كما رأينا ذلك في نقدنا لها كلها . وإنما الزعامة في الواقع الأمر ظاهرة اجتماعية ، تنشأ تلقائيا في المجتمع ، ويلبسها بعض الأفراد من الزعماء بإرادة المجتمع ، فهي سابقة لظهورهم ، وهي بعد ذلك تهدف إلى غرض جمعي يربط فيما بين الزعيم وأتباعه برباط كله التماسك والتضامن دون أن يستبد أحدهما بالآخر ، فهي تقوم أصلا على الجاذبية وعلى الحرية . وهي كذلك ليست بشيء واحد يتعدد حسب تصورات المتكبرين النفسانيين ، وإنما هي زعامات تتكاثر حسب طبيعة الظواهر الاجتماعية وحسب أشكال المجتمعات البشرية . فهناك زعامات استقرارية تتعلق بحياة الناس في زمان معين ومكان معين أهمها الزعامة السياسية والزعامة الدينية ، وهناك زعامات تطورية حسب تسلسل أشكال المجتمعات . وهذه المجتمعات قد تكون إما متأخرة ، وإما تاريخية قديمة ، وإما تاريخية حديثة . فالزعامة في المجتمعات الأولى تركز في

الساحر وفي الثانية تنحصر في الفيلسوف الحكيم وفي القديس من رجال الدين ،
وفي الثالثة يمثلها السيد الشريف في الملكيات فيما قبل الثورة الفرنسية وفي المواطن
الكبير فيما بعدها ثم في الزعيم الدولي الآن ، وبهذا نرى أن الزعامة زعامات وهي
اجتماعية في أساسها وفي هدفها وفي وسائلها ، فهي ظاهرة من ظواهر الاجتماع قبل
أن تكون ظاهرة من ظواهر النفس الفردية .

عبد العزيز عزت